تطور الفنون الإسلامية وأثرها في إنتاج قوة ناعمة في العصر العباسي

(132- 656هـ/ 750- 1258م)

إعداد

أ.ناصر عبدالنبي محمد العوضي
باحث ماجستير تخصص تاريخ اسلامى

أ. د.إبراهيم محمد على مرجونة
أستاذ التاريخ الإسلامى وحضارته

بكلية الآداب – جامعة دمنهور

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور
العدد الثانى و الستون - يناير -الجزء الثانى - لسنة 2024

تطور الفنون الإسلامية وأثرها في إنتاج قوة ناعمة في العصر العباسي (132- 656هـ/ 750- 1258م)

أ. ناصر عبدالنبي محمد العوضي

أ. د.إبراهيم محمد على مرجونة

الفن: هو "القدرة علي التعبير عن الجمال والحقيقة بكل أشكالها، وهو التعبير عن موضوعات جمالية أو فنية لها علاقة بالمجتمع أو الواقع المحيط أو التجارب التي يمكن أن تكون مشتركة مع الآخرين[1]"، والفن الإسلامي: هو "نوع من البحث عن الحقيقة والجمال، فالدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن، وانطلاقا من عالم الضرورة فكلاهما شوقا مجنح لعالم الكمال، وكلاهما ثورة علي آلية الحياة[2]، ويتميز الفن الإسلامي بوحدة فنية فكرية حققت الجمال النابع من الحرفة، الدالة على ثقافة المجتمع الإسلامي النابعة من المعرفة لشتي العلوم والفنون، بحثا عن النقاء الروحي والارتباط الاجتماعي والارتقاء الإنساني من خلال هدف نفعي للمنتج الفني، قائم على قيم حضارية جعلت الفن الإسلامي من أعظم الفنون التي أنتجتها الحضارات الكبرى[3]

توسعت رقعة القوة الناعمة للدولة العباسية منذ عني العباسيون بالتطور الحضارى لدولتهم، فاهتموا بالناحية العمرانية عناية واضحة، فأنشؤوا عددًا من المدن الجديدة برمتها، كما قام العباسيون بإنشاء شبكة واسعة من الطرق والجسور، وشيدوا المدارس والجامعات والمستشفيات والحمامات العامة ، وتمازجت مع العمارة فنون الزخرفة التي وصفها عدد من النقاد بأنها لغة الفن الإسلامي، بالإضافة الى فن الغناء الذي ما زال يتدرج عند العرب حتى كمُل أيام بني العباس ، ولقد بلغت الموسيقى العربية في العصر العباسي ذروة مجدها من ناحيتي الأداء الغنائي وانتشار العلوم والبحوث والدراسات الموسيقية ، حتى إن المؤرخين والنقاد يجعلون الفن الأندلسي متأثرًا بالفن العباسي .

فترصد الدراسة هذا المفهوم من خلال الاطلاع على دور الثقافة الإسلامية وما تحويه من فنون ، عن العمارة والزخرفة وفني الغناء والموسيقي، وآثار الرواج الحضارى الذي أحدثته الخلافة العباسية كقوة ناعمة تؤثر وتتأثر بالدول والحضارات الأخرى .

أولا: فـن العمارة

أخذت العمارة الإسلامية في التطور والترقي والفخامة، ولما فتحت بلاد فارس والشام، واختلطوا بأهل البلاد التي فتحوها، استفادوا من خبرتهم وسبقهم في فن العمارة ثم تفوقوا عليهم، واتخذوا لأنفسهم طرازا للبناء والعمارة خاصا بهم متلائما وطبيعتهم وأحوالهم وظلوا

يوالونه بالتهذيب والإبداع حتي بلغ أرقي درجات الرقي والكمال، وفاق كلا من الطرازين الفارسي والبيزنطي من حيث الإتقان وجمال التنسيق والإبداع[4]، فلما استولت الدولة العباسية علي مقاليد الحكم، أصبحت السيادة في العالم الإسلامي للعراق دون الشام وتغيرت أحوال دولة الخلافة فانصبغت بالصبغة الفارسية نتيجة لتوجهها نحو المشرق الإيراني، وهكذا فقد الفن الإسلامي شيئا من سماته العربية الشامية الهلينية، واستعاض عنها بشيء من المقومات العراقية الفارسية.

إن أعظم منجزات العمارة الإسلامية تنتمي الي العصر العباسي، وإن كانت قد نبعت من المصادر التي نشأت عنها العمارة في العصور الوسطي، ولكنها انتفعت بما ورثته في صور أكثر تنوعا بشكل ظاهر، وأعطت معاني جديدة لأشكال كانت معروفة وشائعة، كما أعطت معاني قديمة لمبتكرات جديدة في الأشكال يدخل كل منها في النطاق العام للحضارة الإسلامية[5]،

ومن أهم مظاهر الطرز الإسلامية في العصر العباسي:

1-اتخاذ الاعمدة والمنحنيات والمشربيات والشرفات والقباب والمآذن والمدخل الملتوي، وبعض هذه المظاهر مستوحاة من بيئتهم وأحوال معيشتهم[6].

2-المدن كانت تحاط بأسوار منيعة ولها أبواب متينة يمكن إغلاقها عند الحاجة كأسوار بغداد، ويكون في وسط المدينة ساحة متسعة بها أكبر مساجدها.

3-البيوت كانت تبني داخل ساحة الدار وليس لها نوافذ تطل علي الشارع، وكان يخصص كل حي من أحياء المدينة لأهل حرفة يعرف باسمهم.

4-كان اختيار موقع المدينة وتخطيطها قريب الشبه من باديتهم وأحوال معيشتهم من حيث الموقع واتساع الخطط، وهم قد برعوا في تخطيط المدن وبرزوا عن غيرهم كما هو ملاحظ في الكثير من المدن التي بنوها.

5-استمدت الزخارف من المناظر الطبيعية والأشكال الهندسية والنباتية وتحاشوا التماثيل والصور المجسمة، وكان تخطيط المساجد بعد أن ارتقي فن العمارة في هذا العصر، كان يقوم علي أربعة إيوانات مسقوفة وعقودها محمولة علي عمد من الرخام وأكبرها إيوان المحراب ويتوسط الإيوانات صحن مكشوف كثيرا ما تتوسطه قبة تحتها فسقية[7]،

1-عمارة بغداد (التأثير الفارسي)

شيد الخليفة المنصور بغداد (مدينة السلام) سنة (145هـ/ 762م)، في الجانب الغربي من نهر دجلة علي بعد بضعة أميال شمال المدائن، محاولا بنائها علي شكل دائرة في وسطها القصر والجامع ويحيط بها سور كبير فيه أبراج ويوازيه سور آخر، وانتقل البناؤون إلي استعمال الآجر بدلا من الحجر وإلي بناء القوائم بدلا من اتخاذ الأعمدة، وغلبت الأساليب الفنية الفارسية علي الفنون الإسلامية، كما غلب الطابع الفارسي علي الأدب والحياة الاجتماعية[8]،

كانت بغداد شاهدا على مدي التطور الذي طرأ على المسلمين في ذلك العصر، فقد أنشأ المنصور هيئة، هي أشبه الآن "بهيئة التخطيط العمراني"، فاستدعي المهندسين وأشار عليهم ببناء عاصمة لملكه يكون فيها في مأمن داخليا وخارجيا، وطلب منهم أن تخطط له المدينة على الأرض حتى يعرف شكلها، وأن يوضع علي الخطوط حب القطن ويصب عليها النفط وتوقد فيها النار فنظر اليه والنار تشتعل[9]، حتي برزت له بشكل واضح، وقد روعي في اختيار موقع بغداد ما يراعي في أوضاع الحضر حيث يشترط في اختيار موضع المدينة أن تقع إما علي هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتي لا يوصل إليها إلا بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض وقرب الزرع منها ليحصل الناس الأقوات[10]،

أمر المنصور ببناء بغداد وحفر أساسها وجند لها الصناع والبنائين والمساحين من أنحاء ملكه الواسع حتي بلغ عددهم مائة ألف وبدء فيها[11]، واختار جماعة ممن يثق بعلمهم وأمانتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب، أمثال الحجاج بن أرطاه وعمران ابن الوضاح وأجري عليهم الأرزاق، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر، وعهد الي أبي حنيفة في عد اللبن والإشراف علي البناء فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب، فأتي بقصبة قاس بها الطوب وبذلك أمكنه معرفة العدد في زمن أقصر وبدون عناء، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة بيده وقال: "بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين"، ثم قال: ابنوا علي بركة الله[12].

بنيت المدينة علي شكل مستدير يحف بها من الخارج خندق عميق، يقوم بعده الي الداخل سور به أبراج، ومن وراء هذا السور سور ثاني به أبراج كبيرة وصغيرة، وكان هذا السور يحيط برحبة فيها منازل السكان تجري بينها الطرقات المختلفة، وكان لكل طريق منها اسم مستمد من أسماء أصحاب الدور والبساتين المقيمين في تلك الطرقات، ثم بعد ذلك سور ثالث أعلي من السورين السابقين وأعظم منهما سمكا، وهو يحيط برحبة واسعة

يتوسطها قصر الخلافة الذي كان يعرف (بقصر الذهب)، وكانت تعلوه قبة خضراء عظيمة عالية تري من اطراف المدينة وعلي رأسها تمثال علي صورة فارس في يده رمح يدور مع الريح حيث دارت، وإلي جوار القصر كان يقوم مسجد المنصور، وكانت في هذه الاسوار مداخل أربعة عظيمة الارتفاع تفضي الي الساحة الوسطي، مدخل في اتجاه الكوفة ومدخل في اتجاه البصري وثالث في اتجاه خراسان والأخير في اتجاه الشام، وكانت المداخل تسمح للفارس أن يدخل الي المدينة وهو رافع رمحه أو علمه، وكان لها أبواب ضخمة من الحديد لا يفتحها ولا يغلقها إلا جماعة من الرجال[13].

2-عمارة سامراء (النفوذ التركي)

عني المعتصم بالعمارة: وكان يقول إن فيها أمورا محمودة، فأولها عمران الأرض التي يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش، وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك، إذا وجدت موضعا متي أنفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرني فيه[14]، وعلي بعد مائة متر شمالي بغداد شيد المعتصم مدينة سامراء علي الضفة اليمني لنهر دجلة، واتخذها عاصمة جديدة لدولته.

وقد ذاع صيت سامراء وعرفت فترة ازدهار رائعة طالت الي ما يقرب من نصف قرن (223 – 270هـ / 838 – 883م) قامت فيها القصور الخلافية الرائعة مثل الجوسق الخاقاني، وقصر بلكوارا وقصر العاشق، ولقد كشفت الحفائر عن كثير من شوارع سامراء الواسعة ومساجدها الجميلة وأسواقها الكبيرة وقصورها البديعة وأحيائها السكنية المختلفة، ولقد تبين أن مساكنها كانت مجهزة بالحمامات والنافورات وأنها كانت مزينة بالصور الجدارية[15]، وهذا ما دعا الي القول بأن: تخطيط الدار العربية تبلور في سامرا من حيث اتخاذه شكل الفناء المركزي الذي تحيط به الوحدات السكنية[16]، ومن أهم خصائص هذه العمارة في هذا العصر:

1. استخدام اللبن والآجر(الطوب) في البناء بدلا من الحجارة، ولقد ترتب علي استخدام الآجر في العمارة ابتكار عناصر زخرفية بترتيب استخدام القوالب، واستعمال الآجر ذي البريق المعدني ككسوات زخرفية بديعة في داخل البنايات وخارجها.
2. استخدام العقود المدببة التي سمحت بزيادة ارتفاع السقف وظهور الإيوان[17]، وعن هذا الطريق زاد ارتفاع السقف وتحقق المزيد من الفراغ بالاستغناء عن الأعمدة والدعامات،

3.أما علي مستوي الزخرفة: فأدي استخدام الآجر إلي استخدام كسوة الجص ولوحاته المأخوذة أصلا عن الخشب المنقوش نقشا خفيفا، أو محفور حفرا عميقا، أو مصبوبا في أشكال توريقية وتوشيحية مختلفة، مما يعطي للعمارة رقة رقيقة، الأمر الذي اعتبره بعض المؤرخين في الفن بمثابة العامل الحاسم في تقرير الصفة الفنية للبناء أو الصفة الروحية للعمارة الدينية[18].

تخطيط سامراء: شرع المعتصم في تخطيط حاضرته الجديدة في سنة (221هـ) فوضع أساس قصره، وأحضر الفعلة والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم، كما جعل قطائع أخري لغلمانه من أهل خراسان وكانوا يسمون (الأشروسية)، وجعل قطائع لأهل الحوف في مصر وكان يطلق عليهم المغاربة، وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة بهم، ونقل اليها الأشجار والثمار، وشيد في طرفها مسجدا جامعا، ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا، وتم بناء سامرا وقصدها الناس من كل الأماكن وشيدوا فيها المباني الشاهقة حتي أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر[19]،

مسجد سامراء:

بدء المعتصم في بناء الجامع سنة (223هـ /836م) وتم الانتهاء منه في عهد المتوكل (238هـ / 852م) وهو من حيث التخطيط ينتسب الي الطراز العربي النبوي ذي الفناء المركزي المتوسط، ومن حيث العناصر المعمارية والزخرفية تنطبق عليه سمات الطراز الفارسي الناشيء في هذا العصر، وتخطيط الجامع في شكل مستطيل عظيم، مساحته أكثر من 40 ألف متر وهو أكبر المساجد مساحة، والحيطان مبنية بالطوب الآجر والسقف يرتكز مباشرة علي دعامات مثمنة ترتبط بها أعمدة من الرخام ويحيط بالجامع سور له أبراج مستديرة، وكان بيت الصلاة يحوي أربعا وعشرين صفا من الدعامات، تكون خمسة وعشرين رواقا عموديا علي جدار القبلة، والرواق الأوسط أوسع قليلا من الاروقة الجانبية، أما عن المحراب فلم يكن مستديرا بل مستطيلا كما كان الحال في ذلك الوقت في العراق وفارس[20]، أما عن المئذنة المشهورة بالملوية فهي خارج السور على بعد من الحائط الشمالي للجامع على المحور، وهي عبارة عن برج حلزوني الشكل، ذي قاعدة مربعة مصعدة من الخارج وترتبط بالجامع عن طريق قنطرة، ومن الواضح أن عمارتها مشتقة من نظام الزبجوارات البابلية، وسلم الملوية يدور في عكس اتجاه الساعة في خمس

دورات كاملة إلي أن ينتهي الي قمة اسطوانية الشكل مزخرفة بثماني مشكاوات حيث الباب الذي يؤدي الي سلم شديد الانحدار يقود الي القمة[21].

3-الطراز السلجوقي:

يعتبر الفن السلجوقي استمرارا لفن دولة الخلافة العباسية الفارسي النشأة وذلك بعد ان استقر السلاجقة في بغداد سنة (447هـ / 1055م)، وقد أدخل السلاجقة الكثير من المستجدات علي الفن العباسي سواء كان عمارة أو زخرفة أو فنون حرفية، ففي العمارة بالغوا في استخدام الأواوين، كما اهتموا بالواجهات والبوابات والمآذن العالية والقباب المرتفعة، وكان لهم الفضل في نشر بناء المدارس والاضرحة في سائر أرجاء العالم الإسلامي[22].

وأصبح هذا هو النموذج لطراز المسجد في العصر السلجوقي، كما في مسجد قزوين (509هـ /1115م)، ورادستان (576هـ / 1180م)، وفي عصر أتابكة السلاجقة في العراق والشام بقي جامع الموصل الذي أعاد بناءه نور الدين سنة (566 -568هـ / 1170 -1172م) والمسجد مشيد علي دعائم مثمنة الشكل ومئذنة اسطوانية معروفة بالحدباء مشيدة بالآجر علي قاعدة مكعبة وتنتهي بقبيبة أشبه بالخوذة[23].

ثانيا: فن الزخرفة:

اهتم الحكام المسلمون بفنون البلاد التي تكونت منها امبراطورياتهم الواسعة، وتبلورت هذه الاهتمامات بشكل واضح في عصر الدولة العباسية، فقد استعانوا بالصناع والفنانين في البلاد التي آلت اليهم، ومن هنا تجلت الروح الفارسية في الفن الإسلامي، ثم ظهر فن مستقل تماما واضح المعالم يسوده التوحيد بمآثر الدعوة الإسلامية، وبالفراغات في الزخارف وفي العمارة الإسلامية، حيث الطابع المنفرد، كالمقرنصات والشرفات التي تعلوا المآذن والمباني وما فيها من فن رفيع[24]، ثم أسهم الأتراك في العصر العباسي الثاني في هذا الفن الإسلامي وحدث تبلور للاتجاهات الفنية في الزخرفة الإسلامية الخالصة من شوائب الاستعارة من الفنون السابقة عن الإسلام والذي نبت منه "الأرابيسك"، واختار الفنان المسلم التحوير لكي يرتفع فوق مرتبة التقليد.

تقدم فن الزخرفة في العصر العباسي باستعمال النقوش الخطية العربية، وكانت تدور حول حافات التحف أو تكون شريطا زخرفيا علي أثر من الآثار، وكان تأثير الفن الفارسي في الفن الإسلامي عظيما في هذا العصر واتجهوا بميولهم الفنية نحو الزخرفة، فأجادوا

زخرفة الزجاج والنسيج والكتب والمباني وغيرها بالمناظر الطبيعية والأشكال الهندسية والنباتية التي تؤلف علي نحو يجعلها جميلة تسر الخاطر بديعة في عين الناظر[25]،

ولقد كانت للسلاجقة مستحدثاتهم في الفنون الصغرى، كما في النحت والحفر في الخشب، حيث طوروا المنبر واستكملوا عناصره، وكان لهم فضلهم في تطوير صناعة السجاد ذي العقدة الشبيه بالفروة، كما كان لهم أثرهم في فن التصوير للكائنات الحية في شكلها الإسلامي وكان لكل ذلك أثره ليس في الشرق بل في مختلف الأقطار الإسلامية [26]، وأصبحت الزخرفة الإسلامية في العصر العباسي تتميز بعدة عناصر فنية فريدة.

عناصر الزخرفة الإسلامية:

1-الرسوم الهندسية:

اتخذ العرب بعد استيلائهم علي بلاد الشام وفارس طرازا خاصا للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الاعمدة والاقواس، أو العقود والقباب والمقرنصات أو الدلايات، تجدها بارزة ومدلاة في طبقات مصفوفا بعضها فوق بعض، في واجهات المساجد وفي المآذن لإقامة الشرفات التي يدور فيها المؤذن، أو في تيجان بعض الأعمدة الإسلامية، أو في القباب التي بين القاعدة المربعة والسطح الدائر، وقد استخدمت المقرنصات للزخرفة في السقوف الخشبية، فضلا عن استخدامها في العمائر نفسها[27]، ولم يقف استخدامها فقط علي حد استعمالها تحت القباب بل اتخذوا منها وسيلة لتزيين الفتحات من أبواب ونوافذ وتزيين العقود والمداخل والأركان والزوايا وكل مكان في البناء صالح لاستعمال هذا العنصر الزخرفي[28].

وقد تقدم فن الزخرفة في العصر العباسي الأول تقدما عظيما، يدل علي ذلك هذه القباب الأربع التي بناها المنصور علي أبواب مدينة بغداد، وكان قطر كل واحد منها خمسين ذراعا، وقد زخرفت هذه القباب بالذهب وكان يصعد إليها علي الخيل وعليها تماثيل تديرها الريح، وكان المنصور يجلس فيها طلبا للراحة، فإذا أحب النظر للماء جلس في قبة باب خراسان، وإذا أحب النظر للأرباض جلس في قبة الشام، وإذا أحب النظر الي الكرخ جلس في قبة البصرة، وإذا أحب النظر الي البساتين والضياع جلس في قبة باب الكوفة، وتشبه هذه القباب المناظر التي بناها الفاطميون في الفسطاط والقاهرة فيما بعد[29].

2-الزخارف النباتية:

أكثر الزخارف النباتية ذيوعا في الفنون الإسلامية الأرابسك، وهو نوع من الزخارف النباتية ابتكرها الفنان المسلم في هذا العصر، متأثرا بما وجده من وحدات فنية عند الأمم

الأخرى، فقام بتطويرها ونسق بين أجزائها ثم صهرها في بوتقته ومزجها بفلسفته حتي أضحت لها شخصيتها الخاصة بها[30]، ولقد عرف الأرابسك بأنه "لغة الفن الإسلامي" وكان يسمي قديما بفن التوريق، وقد عمت هذه التسمية حتي كادت تطلق علي كل الزخارف النباتية الإسلامية، وقد بدأ ظهور زخارف الأرابسك في القرن التاسع الميلادي، فنراها موجودة في التحف والزخارف الجصية التي كانت تغطي الجدران في مدينة سامراء بالعراق، وفي مصر في العصر الطولوني، وتطورت بعد ذلك في العصر الفاطمي[31].

وقد أتقن المسلمون زخارف نباتية أخري غير الأرابسك تختلف في دقة تقليد الطبيعة بحسب العصور والأقاليم، ومن الفروع النباتية وعناقيد العنب وأوراقه وغيرها من الزخارف ما يوجد في قبة الصخرة، وقصر المشتي، وسامراء، ومنبر جامع القيروان، وفي زخرفة قصر المعتصم: (الجوسق الخاقاني) التي تتلخص في كسوة الجص، ومع ذلك فإن كثيرا من العمائر والتحف كان عليها رسوما نباتية دقيقة، يمكن مقارنتها بالرسوم النباتية في عصر النهضة بأوروبا بعد ذلك، دلالة على انتقال هذه الرسوم والزخرفة الإسلامية اليها وتأثر الأوروبيون بها[32].

3-الصور الآدمية والحيوانية:

هناك فرق بين الفن الديني المتمثل في عمارة المسجد وبين الفن الإسلامي المتمثل في القصور السكنية فالأول ملتزم بالاتجاهات الدينية التي تمنع من استخدام الصور، بينما الثاني متحرر من هذا الالتزام الي حد كبير، وترتب علي قبول هذا الاتجاه أن أصبح هو الدارج في الفنون الإسلامية الصغرى مما يتعلق بالأشياء المستخدمة في حياة الناس اليومية، وقد أصبحت القصور في العصر العباسي محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج وعليها صور من الجص المجسم كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج، مزينة بالرسوم التي كانت من مميزات الفن الفارسي،

وقد كشفت الحفائر في أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة من الرسوم المصورة علي الحائط من رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص في الصيد أو نساء يرقصن[33]، كما في قصر الجوسق الخاقاني: تظهر زخرفة جناح الحريم عناصر من الشخوص الآدمية من راقصات وموسيقيين أو حيوانية وطيور داخل جامات (إطارات دائرية) وتفريعات نباتية، ومن الصور الجدارية في الجوسق الخاقاني صورة فتاتان راقصتان ربما يكون هذا الرسم مستوحي من وسط أسيا عن الترك الذين أحضروه الي العراق[34].

4-الزخارف الخطية:

خص الإسلام فن الخط برعايته لأنه وثيق الصلة بالدين، إذ هو الوسيلة الوحيدة التي يكتب بها كلام الله عزوجل، ويعرف الخط بأنه: "رسوم وأشكال حرفية تدل علي الكلمات المسموعة الدالة علي ما في النفس"، ويشير ابن خلدون الي أن علماء التصوف ينسبون الي الحروف العربية أسرارا خفيه تجلب الخير والبركة[35]، وقد انعكست هذه الفكرة علي كثير مما أخرجه الفنانون من مصنوعات وما شيدوه من عمائر، إذ زينت بالآيات القرءانية والعبارات الدينية أو بجمل مختلفة من صيغ الدعاء والمدح، وقد ترتب علي ذلك أن أصبح الخط العربي مشتركا في جميع فروع الفن الإسلامي علي جدران المساجد والقصور وعلي الخزف والخشب والعاج والزجاج والاقمشة والطنافس والمعادن[36]، اتخذت الكتابة كعنصرا حقيقيا من عناصر الزخرفة، فعملوا علي رشاقة الحروف وتناسق أجزائها وتزيين سيقانها ورؤوسها ومداتها وأقواسها بالفروع النباتية والوريدات.

تعلم العرب الخط النبطي من حوران أثناء تجاراتهم في الشام، وتعلموا الخط الكوفي من العراق قبيل الإسلام، وظل الخطان معروفين عندهم بعد الإسلام، والأرجح أنهم كانوا يستخدمون الخطين معا، الكوفي لكتابة القرءان والنصوص الدينية، والنبطي لكتابة المراسلات والمكاتبات الاعتيادية[37]، وظهر الكتاب في العهد الراشد فكتبوا القرءان بالخط الكوفي، فبلغت الأقلام العربية الي اثني عشر قلما، وفي أيام المأمون تنافس الكتاب في تجويد الخط فحدثت أقلام أخري حتي زادت الخطوط علي عشرين شكلا وكلها تعد من الخط الكوفي[38]،

5-الصناعات الزخرفية:(الفنون الصغري)

في مجال صناعة الخزف والتحف: امتاز العصر العباسي بنوع من الخزف ذو البريق المعدني ذاع استخدامه في العراق وإيران ومصر والشام وإفريقية والأندلس، وكانت تصنع منه آنية يتخذها الأمراء والأغنياء عوضا عن أواني الذهب والفضة التي كان استعمالها مكروها أو محرما في الشريعة الإسلامية، كما كانت تصنع منه أيضا تربيعات تكسي بها الجدران كالتي لا تزال باقية حتي الآن في جامع القيروان[39]،

وقد حدث في كثير من الأحيان أن كان الفن في ديار الإسلام يتأنق ويبدع في اختيار أشكال الآنية والتحف التي تستخدم في الحاجيات اليومية، فيتخذ المبخرة أو الإبريق الخزفي أو غطاء الإناء علي هيئة حيوان أو طائر، ونجح مهرة الفنانين في تخفيف الشذوذ والتناحر في الألوان بتصغير المساحات الملونة وتكرارها، فتجاوزت الألوان المتباعدة في هدوء وبهاء بعد أن خفف من حدتها، وضعها في أشكال هندسية صغيرة أو وحدات موزعة

في مساحات كبيرة ذات ألوان أخري[40]، وقد أعجب المسلمون بالإنتاج الصيني، وإن لم يكن قد ابتكروا البريق المعدني فإن لهم الفضل في إحيائه ونشره، وقد عثر علي بقايا منه في الزهراء في قرطبة وفي الفسطاط مصر وفي سوسة والري بإيران[41]، كما دخلت صناعته الي دمشق.

ثالثا: تطور فن الغناء والموسيقي:

أولي العصر العباسي اهتماما كبيرا بالموسيقي، ففيه ارتفعت الموسيقي وازدهرت، وشاع استعمالها، وأمسي الموسيقيون موضع تشجيع وتقدير من الخلفاء، حيث لقي الفن وخصوصا الموسيقي والغناء من التشجيع والتكريم ما يجعل المرء يظن أن بلاط الخليفة وقصره قد تحول إلي معهد للموسيقي بدلا من كونه مجلسا لأمير المؤمنين، وظهرت الكثير من المؤلفات الموسيقية، والكثير من المؤلفين والعازفين والعلماء في الموسيقي من أمثال إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وزرياب وغيرهم، وأيضا من العلماء من اهتموا بالنظريات والعلوم الموسيقية كالكندي والفارابي وابن سينا[42]،

والغناء: "تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات علي نسب منتظمة معروفة يوقع علي كل صوت منها توقيعا عند قطعة فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها الي بعض علي نسب متفاوتة، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الأصوات"[43]، والغناء البسيط الأول من الحجي، والرجز والحداء تطور مع الوقت الي طرز جديدة من الغناء هي النصب والسناد والهزج[44]،وهو بمثابة الغناء المتقن المعروف بالمضعف الذي يدخل فيه الكلفة والصنعة وهو نوع لم يظهر الا في مرحلة متقدمة بعد ازدهار فن الغناء والموسيقي في هذا العصر[45].

أخذ حب الموسيقي يتطور الي شغف مفرط، وأصبحت الأموال الطائلة تنفق من غير حساب علي مشاهير المغنين والموسيقيين، وما زالت صناعة الغناء تتدرج وتزداد إتقانا كلما قربت الدولة من الترف، الي أن اكتملت وبلغت الغاية أيام بني العباس، علي يد إبراهيم بن المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابنه اسحق وابنه حماد وغيرهم، ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقي في العصر العباسي، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة الذين عملوا علي رفع شأنها، وكثيرا ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية في بغداد يشتركن في حفلات موسيقية خاصة[46].

إذا كان السفاح قد فضل العلم في مسامرة الرجال علي الجهل في مجالسة النساء، فأنه كان يعقد للسماع من وراء ستار[47]، وإذا كان المنصور وولي عهده عيسي بن موسي لم

يستسيغا هذا التقليد، فإنه بولاية المهدي تحولت الخلافة العباسية من حكم خشن متقشف الي دولة مترفة ناعمة، بعد أن هوي المهدي للسماع والطرب، ومما لاشك فيه أن هذا الجو هو الذي تتقدم فيه صنعة الغناء حتي وصل الغناء في هذا العصر مبلغا ممن التطور والتقدم، فكان للغناء في هذا العصر أثر كبير، فشغلوا به وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج، ومعروف ان الغناء انتقل من الحجاز الي العراق، فكان ابن رامين الكوفي يستقدم مغنيات الحجاز[48]، ويقيم دارا واسعة يقصدها الناس وما تنشأ بغداد ويطل عصر المهدي حتي تصبح دارا كبيرة للغناء، فقد جذبت اليها المغنيين والمغنيات ونثرت الأموال عليهم نثرا وأول من كالها من الخلفاء المهدي واقتدي به الهادي[49].

وخلفهما الرشيد الذي كان أول من وضع هذه الصنعة تحت رعايته، فارتقت في ظله حتي أصبحت مهنة شريفة، وكان الامراء والأميرات في العصر العباسي يعملون علي رفع شأنها، فكانت الاميرة علية وهي معروفة بفضلها وورعها، إحدي شهيرات عصرها في الموسيقي، حتي أنه بعد الرشيد ألح عليها الأمين فغنته[50]، ولم يكن أخوها إبراهيم يقل نبوغا وحذقا عنها[51]، فقد جمع إبراهيم بن المهدي الموسيقي الي الغناء فكان يحسن الإيقاع علي الطبل والناي، كما كان له تأثير السحر علي مستمعيه، فكان إذا غني بمجلس من المجالس "لم يبق من الغلمان والمتصرفين في الخدمة وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار، إلا ترك ما في يده وقرب من أقرب موضع يمكنه من سماعه فلا يزال لاهيا عما كان فيه مادام يغني... ويظل الحال إلي أن يبدأ غيره فيرجعون الي شغلهم"[52].

وكان الأمين يعيش للسماع والقصف ويقال أنه اشتري بذلا المغنية بعشرين ألف ألف درهم، وكان في المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحاق الموصلي ومخارق، ويقال انه اشتري عريب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته[53].

ومن شدة اهتمام المتوكل بالغناء فقد كانت نهايته في مجلس الغناء والشراب في القصر الجعفري المعروف بالجوسق، وقد حاول المهندي أحد خلفاء سامراء (255-256هـ / 869- 870م) أن يقطع طريق الرزيلة ويسلك سبيل الفضيلة فأطرح الملاهي وحرم الغناء والشراب[54]،

رابعا: أثر الفن الإسلامي علي الغرب المسيحي

علي الرغم من موقف الإنكار العنيف الذي كان الغرب يقفه ولا يزال من الدين الإسلامي، إلا أنه لم يحمل قط غير شعور الاعجاب بفنون البلاد الإسلامية، وتجلي هذا الاعجاب في الاقتباس منها في أعظم منشآتهم بكل جمالياتها وفنونها المختلفة، جدير بالذكر أن الفنون الإسلامية قد أثرت في الفنون الغربية منذ العصور الوسطي، فقد نالت اعجاب الصفوة وأصحاب الذوق الرفيع، فضلا عن تملكها عقول الفنانين الغربيين، مما جعلهم يقتبسون منه زادهم وفكرهم ورحيق إبداعهم الفني[55].

ولجمال الزخارف وروعتها أخذها رجال الفن من المسيحيين واستعملوها في زخارفهم، وقد أشار الكثير من الباحثين ألي أمثلة لكتابات عربية أعجبت الأوربيون بفنها الزخرفي ونقلوها دون فهم لتزيين القصور والكنائس، ومن ذلك كتابة عربية حول رأس السيد المسيح المصور فوق الأبواب التي أنشأها البابا أوجين الرابع (1431 – 1447م) في كنيسة القديس بطرس، وخطوط كوفية طويلة علي قميص القديس بطرس والقديس بولس[56]، وهكذا أخذ استعمال الحروف العربية والزخارف الإسلامية يزداد انتشارا في صناعات أوروبا المسيحية وزاد اعتماد أوروبا إبان ازدهار الحضارة الإسلامية، علي البضائع المزخرفة الواردة من البلاد العربية كالأقمشة الحريرية والأواني الخزفية والمصابيح النحاسية، مما فتح الطريق أمام الفن العربي لغزو أوروبا[57].

ولقد أثارت المنسوجات في نفوس الغرب دهشة عظيمة عندما تأملوها وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم، نظرا لجمال الزخرفة والتنسيق بين الألوان ودقة النسيج، وأسموها بأسمائها العربية مثل القماش الشفاف أطلقوا عليه اسم (شيفون)، وكلمة (ركامو) المشتقة من الكلمة العربية رقم، أو المستمده من البلاد التي اشتهرت بها، مثل (الموسلين Muslin) الذي كانت تنتجه الموصل، و(الدمسك Damask) الذي كانت تنتجه دمشق، و(البلداشين Baldachin) الذي كانت تنتجه بغداد، و(التابس) نوع من الحرير عرف بهذا الاسم أخذ من العتابية أحد محلات بغداد القديمة التي اندثرت[58]،

كما أعجب الغربيون بالرسوم الهندسية وقلدها بعضهم، حتي ليروي عن ليوناردو دافينشي أنه كان يقضي ساعات طويلة يرسم فيها الزخارف الهندسية الإسلامية ككل[59]

الخاتمــة

الفن الإسلامي هي التعبير النهائي المتجدد للأمة الإسلامية، والانقداح المنصهر والسيال لتطور هذه الأمة، فهو انعكاس حقيقي للروح الإسلامية، والفن الإسلامي يحمل بين جنباته مصدر الجمال ذاته ووحدته المعتنقة للشكل والموضوع، وتميز العصر العباسي

بتطور واضح وبارز في مختلف الفنون الإسلامية من عمارة وزخرفة وموسيقي، استفادت منها الدولة العباسية والدول والمجتمعات المتعاقبة عليها.

تمثل الفن العباسي الجديد في بناء بغداد ثم في بناء سامراء التي أنهت النفوذ الفارسي لتقيم النفوذ التركي، وأدي ذلك إلي تغيير كبير في أساليب العمارة والزخرفة، وكثرت العمارة في العصر العباسي فبنيت المدن التي امتلأت بالقصور والمساجد والمتنزهات، وعلي الرغم من أن المسلمين استعانوا بمهرة الصناع في البلاد التي دخلت في حوزتهم، فقد احتفظت العمارة الإسلامية بطابعها الجديد.

رغم التطور الكبير الذي حصل علي الحياة في جميع جوانبها في العصر العباسي بشكل عام، إلا أن هذا العصر يعد عصرا ذهبيا للموسيقي، ففيه ارتفعت الموسيقي وازدهرت، وأمسي الموسيقيون موضع تشجيع وتقدير من الخلفاء، حيث لقي الموسيقي والغناء من التشجيع والتكريم، وظهرت الكثير من المؤلفات الموسيقية، والكثير من المؤلفين والعازفين والعلماء في الموسيقي

لم يقتصر تأثير الفن الإسلامي علي الفنون الزخرفية فقط، بل تعداه الي العمارة الأوروبية فأخذوا من العقود المدببة والعقود المفصصة والشرفات والأعمدة المندمجة ومآذن المساجد والواجهات وأغلب العناصر المعمارية والزخرفية الإسلامية، وراحوا يقلدونها في عمائرهم حتي تركت طابعها في مبانيهم.

وكذلك كان لفن العمارة تأثير كبير علي العمارة في جنوبي فرنسا وإيطاليا، ولا غرو فإن الأساليب الإسلامية في التصميم والزخرفة ظلت باقية في اسبانيا حتي عصر النهضة، بعد أن حفظها (المدجنون وقد استخدمت أوروبا في العصور الوسطي كثيرا من المعماريين العرب، منذ عصر شارلمان فانتفعت من خبرتهم وفنهم ونبوغهم وتفوقهم في العمارة والبناء.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن الشخصية الإسلامية ظاهرة في الفنون والصناعات الي درجة تظل موجودة حتي بعد أن تكون المنطقة التي صنعت فيها قد عادت الي السيطرة المسيحية، وهذا يوضح مدي الأثر القوي الذي أوجده الفن الإسلامي، وأصبح له قوة حيوية انعكست علي جميع الفنون التي نشأت في العالم الإسلامي والغربي.

أن المسلمين في العصور الوسطي كانوا من أهم العوامل الهامة في تثقيف أوروبا وفي تصفية أذواقها وترقية فنونهم، ومن الخطأ أن ينسي الجيل الحاضر هذه الحقيقة أو يتناساها، فإن بقائها ماثلة في الذهن من شأنه أن يجعل العلاقة بين الشرق والغرب علاقة

مودة وصفاء لا علاقة تناحر وعداء، فكلا الجانبين قد ساهم في بناء ورقي الإنسانية وهذا ما دعا ويدعو إليه الدين الإسلامي على مر العصور

المصادر والمراجع:

---

(1) ابن منظور: محمد بن مكرم، **لسان العرب، مادة فنن**، (دار صادر بيروت، ط6، 1997م)، ج11، ص231.

(2) محمد قطب: **منهج الفن الإسلامي**، (دار الشروق، القاهرة، 1981م)، ص5.

(3) أبو صالح الالفي: **الفن الإسلامي**، (دار المعارف، ط3، القاهرة، 1982م)، ص17 وما بعدها،

(4) آدم متز: **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ج2، مرجع سابق، ص203

(5) جوزيف شاخت، كليفورت بوزورث: **تراث الإسلام**، ج1، ترجمة محمد زهير السمهورى وآخرون، (منشورات المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 1990م)، ص317.

(6) السيد أمير علي: **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**، ترجمة رياض رأفت، (لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1938م)، ص169.

(7) أحمد شلبي: مرجع سابق، ص216، وما بعدها.

(8) زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص15.

(9) الطبري: مصدر سابق، ج9، ص241.

(10) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ص291.

(11) محمد عبد العزيز مرزوق: **الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه**، (مطبعة أسعد، بغداد، 1965م)، ص67.

(12) اليعقوبي: كتاب البلدان، مصدر سابق، ص238.

(13) محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق، ص68 وما بعدها.

(14) المسعودي: مروج الذهب، مصدر سابق، ج2، ص345

(15) ارنست كونل: مرجع سابق، ص33.

(16) فريد شافعي: **العمارة العربية في مصر الإسلامية**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م)، ص31.

(17) الإيوان: هو القاعة المغطاة بقبة معقودة تنفتح علي الخارج مباشرة دون حائط أو واجهة

(18) سعد زغلول عبدالحميد: **دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية**، (دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1996م)، ص 509 وما بعدها.

(19) حسن إبراهيم حسن، مرجع سابق، ج2، ص 286.

(20) المرجع الأسبق، ص511.

(21) أرشيبالد كاميرون كريزويل: **الآثار الإسلامية الأولي**، ترجمة: عبد الهادي عبلة، (دار قتيبة، دمشق، ط2، 2007م)، ص278.

(22) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ص 530.

(23) ارنست كونل: مرجع سابق، ص66.

(24) نعمت إسماعيل: **فنون الشرق الأوسط في العصور الوسطي**، (دار المعارف، القاهرة، 1982م)، ص17.

(25) أبو زيد شلبي: **تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي**، (مكتبة وهبة، القاهرة، 2012)، ص230

(26) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ص 530.

(27) المسعودي: مروج الذهب، مصدر سابق، ج2، ص48

(28) محمد عبد العزيز مرزوق: مرجع سابق، ص 144.

(29) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ج2، ص 266.

(30) أبو زيد شلبي: مرجع سابق، ص33.

(31) زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص37.

(32) زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص38

(33) زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر، ج1، مرجع سابق، ص28.

(34) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ص516

(35) ابن خلدون: مصدر سابق، ج2، ص949.

(36) محمد عبد العزيز مرزوق: مرجع سابق، ص171.

(37) سيد أمير علي: مرجع سابق، ص 229.

(38) ابن خلدون: المقدمة، مصدر سابق، ج3، ص949، وما بعدها،

(39) زكي محمد حسن مرجع سابق، ص 17.

(40) زكي محمد حسن: **أطلس الفنون الزخرفية**، (مطبعة جامعة القاهرة، 1957م)، ص425،

(41) أرنست كونل: مرجع سابق، ص41.

(42) نضال محمود نصيرات: **الموسيقي عبر التاريخ**، (أفكار، الأردن، د.ت)، ص88، وما بعدها

(43) ابن خلدون: **المقدمة**، مصدر سابق، ج3، ص964.

(44) ابن عبدربه الأندلسي: شهاب الدين أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، ج6، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1404هـ)، ص27.

(45) سعد زغلول عبد الحميد: مرجع سابق، ص405.

(46) السيد أمير علي: **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**، ترجمة رياض رأفت، (لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1938م)، ص172.

(47) المسعودي: **مروج الذهب**، مصدر سابق، ج3، ص278.

(48) الأصفهاني: **كتاب الأغاني**، مصدر سابق، ج11، ص 364.

(49) شوقي ضيف: **تاريخ الادب العربي، العصر العباسي الأول**، (دار المعارف، ط 8، القاهرة، د.ت)، ص 54.

(50) الأصفهاني: مصدر سابق، ج 10، ص162.

(51) أبو زيد شلبي: مرجع سابق، ص 225.

(52) الأصفهاني: المصدر السابق، ص140.

(53) شوقي ضيف: مرجع سابق، ص60.

(54) ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، (مطبعة الموسوعات، مصر، 1317)، ص246.

55 ريتشارد انتجهاوسن: **تراث الإسلام، أثر الفنون الزخرفية والتصوير عند المسلمين في الفنون الأوروبية**، ترجمة: محمد زهير السمهورى، وآخرون، (مجلة عالم المعرفة، الكويت، العدد 233، مايو 1998م)، ص285.

(56) جوزيف شاخت، كليفورت بوزورث: مرجع سابق، ج2، ص 18.

(57) جوستاف لوبون: **الحضارة العربية**، مرجع سابق، ص556، وما بعدها.

58 محمد عبد العزيز مرزوق: مرجع سابق، ص 207.

59 زكي محمد حسن: مرجع سابق، ص53.